الفصل الأول

خطيئة أدم

في القصص القرآني بسورة البقرة تصوير متكامل لخطيئة آدم وأتباعه لنزغ الشيطان، حيث كانت البداية منذ خلقه في صورته الأولى، وقبل أن تدب فيه الروح وكان جسدا لا حياة فيه، وكلما وقعت عين إبليس عليه يتسائل ما أمر هذا المخلوق العجيب؟ وكان على يقين أن وراء خلقه شأن عظيم؛ وامتلأت نفس إبليس بالحقد والكره؛ لمجرد ورود فكرة شأن آدم عند ربه، وجاء يوم إتمام خلق آدم ومنادة الله لخلقه من الملائكة، وكان بصحبتهم إبليس وقال الله عزوجل كما ذكر في سورة البقرة:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةًۖقَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖقَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" البقرة.

ومن هنا كانت البداية للسؤال عن أمر هذا المخلوق من الملائكة ولكنهم آمنوا بأمر الله لمجرد قوله إني أعلم ما لا تعلمون، ويأتي دور إبليس في الآيات ليجهر بحقده وعصيانه لأمر الله:

" وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" البقرة.

فلعنه الله وطرده من رحمته ،واسكن آدم وزوجته الجنة واشتعل حقد إبليس ولما رأى إبليس ما أنعَمَ الله به على آدم؛ من أمر ملائكته بالسجود له، ومن إسكان الله له وزوجه في الجنَّة ؛ حسدهما على ذلك، فبدأ بتنفيذ خطَّته في الانتقام من آدم وزوجه، فكيف بدأ بتنفيذ خطَّته؟

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٣٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ٣١﴾ الأعراف.

والوسوسة والوسواس حديث النَّفس، والاسم منه الوَسواس بفتح الواو، ويطلق على الشيطان اسم (الوسواس)؛ لأنه يحدث من داخل النَّفس، وهذا أدعى للاستجابة والاندفاع إلى ما تَدعو إليه الوسوسة؛ باعتبار أنَّ الداعي شيء من ذات النَّفس لا من جهة أخرى تأمر وتَنهى وتغري؛ فبهذه الوَسوسة أضلَّ إبليسُ آدمَ وأغراه بالأكل من الشجرة، فالشيطان يَستطيع

أن يصِل إلى فِكر الإنسان وقلبِه بطريقة علمها عند الله، يساعده على ذلك طبيعته التي خُلق منها؛ وهي خاصيَّة تَميَّز بها إبليس والشياطين، من خلال الدخول في النَّفس الإنسانية، فيحدِّثونها بالشرِّ، ويحضونها على فعله؛ باستمرارٍ لا يتخلَّله انقطاع، وبإصرارٍ لا انقطاع فيه إلا بالوقوع في المعصية

ثمَّ جاء النصُّ القرآني ليشير إلى هذه الغاية الشيطانية، إنَّ غايته إيقاعُ آدم وزوجه في مَعصية الله ، قال تعالى: " لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا"٢٠الأعراف: أي: ليُظهِر لهما ما كان مستورًا من العوْرات التي يسوء النفس كشفها، وبانكشافها يستيقن إبليس أنه نجح في إغواء آدم وزوجه واسقاطهما في بئر المعصية.

لقد كان إبليس متلهفًا أن يرى معصيتهما، وهي ظهور سوءاتهما؛ فالوسوسة الشيطانية بدأت بتصوير النعيم لهما في أن يكونا ملكين سكنهما الجنان، أو أن يكونا خالدَين فيما هما فيه من نَعيم الجنة، فبدأت الخطَّة الشيطانية بأن زرَع الشكَّ في قلبيهما حول أمر الله في النهي لهما عن أن يَأكلا من الشَّجرة المحرَّمة، فقال لهما مع ما قدَّم لهما من إغراءاته، ووسوسته ما نهاكما ربُّكما عن الأكل من هذه الشجرة؛حتى لا تكونا ملَكين أو تكونا من

الخالدين، فإبليس لمَّا رفَض السجودَ لآدم، علَّل رفضه بأنَّ عنصر النار بطبيعتها الذاتية أشرَف من عنصر الطِّين.كما ورد بالذكر الحكيم.

" قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) الأعراف

وبدأت رحلته مع آدم من هنا وصور لآدم النعيم لو أكل من الشجرة و انه سيكون هو وحواء من الخالدين، فاتَّخذ إبليس معهما أسلوبَ الخطوات والاتباع، وتصوير المنع لهم بأنه ملك لا يبلى بل هو الخلود ودلهم بغرور ليقعا فى بئر المعصية كما ورد فى قول الله عزَّوجل:

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ ٢٢الأعراف.

أي: فبعد أن شدَّد الحلف لهما و أكَّد لهما أنَّه لهما لَمِن الناصحين، أخَذ يصور لهما هذا النعيم بصورة التشويق والرغبة فى الحصول عليه بأي ثمن ليصل بهما إلى بئر المعصية ؛ ليجعلهما عند شفا حدها تمامًا ليس بينهما إلَّا خطوة الوقوع ، وعندئذٍ يسهل عليه أن يزج بهما زجا في غياهب المعصية .

وظل يتبعهما بوسوسته شيئًا فشيئًا، وهذه وسيلة الشيطان، إنَّها قائمة على أسلوب الخطوات المتتابعات والوسوسة المستمرة ليصل بك إلى الحضيض ، أو إلى الدرك الأسفل من الجحيم.

ونجد هنا العبارة القرآنيَّة ترسم لنا صورة فنيَّة رائعة الجمال، وهي تشبيه عملية الإغواء ذات الخطوات المتتابعات في الانحدار بالتدلية في بئر المعصية، حيث قال عزوجل في كتابه:

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾٢٢الأعراف: نعم بغرور أي بمعنى: يخدعه بغرور، ويكلمه بزخرف من القول الباطل.

ونجح إبليس اللَّعين في إيقاعهما في المعصية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾٢٢الأعراف

أي: فحين أكلا من الشجرة انكشف لهما سوءاتهما؛ إذ كانت مواراة عنهما لا يريانها، وهي العورة؛ لأنَّ في انكشافها سوء لصاحبها؛ ولهذا أوجب

الله تعالى على الإنسان أن يَستر عورته؛ فلمَّا علم آدم وزوجه بانكِشاف عورتيهما، علما أنهما سقطا في بئر المعصية، وسرعان ما دعاهما الحياء بأن يغطِّيا عورتهما بورَق الشَّجر، قال تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وبعد أن وقع أدم في المعصية وخالف أمر ربه وساعدته حواء التي هي من ضلعه الأعوج ومن أصل تكوينه، وسرعان ما بدت لهم سوأتهما فبدءا يخصفان من ورق الجنة؛ ويسترا عورتهما التي بدت لهما بمجرد أن وقعا في هذا الإثم العظيم ، فماذا يفعلان أمام هذا الجرم العظيم؟ ندم وبكاء ونحيب وصراخ، العفو يا الله وإبليس يضحك ويقهقه؛ ويقول: ذوقا وبال أمركما؛ فلقد لعنت بسببك يا آدم، وطردت من رحمة ربي، و ذهب آدم لربه طالبا العفو والمغفرة لم يتخلى عنه ربه؛ لأنه رحيم وكيف يتخلى الله عزوجل عمن خلق من أجله الدنيا؟ تقبل توبة أدم وبالتبعية حواء بكلمات علمه إياه .. ولكن بشرط النزول إلى الأرض والشقاء والعمل والسعي والتعمير، ومعك إبليس أروني من منكم الأقوى وجاء الأمر من الله بسورة طه بنزول آدم وحواء وإبليس للأرض.

" قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)"طه

ثم يأتي حديث العتاب في سورة الأعراف لآدم وحواء من ربهما:

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ٢٢الأعراف.

وهو نِداء بدأ بالاستِفهام الذي خرَج للعتاب والتوبيخ؛ إذ ناداهما الله تعالى؛ معاتبًا وموبِّخًا لهما، وقال: ألم أنهكما عن أن تَقربا هذه الشجرة، و أقل لكما: إن الشيطان ظاهرُ العداوة لكما، فإن أطَعتماه أخرَجَكما من الجنَّة حيث العيش الرغيد، إلى حيث الشَّقاء في العيش والتعب في الحياة.

وبعد هذا العتاب الربَّاني لم يكن من آدم وزوجه إلَّا الاعتراف لربِّهما بأنَّهما قد ظلما أنفسهما، فهرولا يطلبان مغفرته ورحمته واستعطافه بأنه إن لم يغفِر لهما، ولم يرحمهما فإنهما لَيكونان من الخاسرين حتمًا؛ لأنَّ خطيئتهما تقتضي خسارتهما بمقتضى أحكام العدل الربانيَّة.

قال تعالى:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقد روي أن هذا الدعاء بالاستغفار والتوبة هو الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربِّه، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وهكذا تاب الله تعالى على آدَمَ وزوجه.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]

ثم يأتي العرض مرة أخرى بسورة الأعراف لأمر الله لهما بالنزول إلى الأرض فهي لهما مستقر ومتاع إلى يوم الميعاد؛ وذلك تأكيدا لمهمة أدم وحواء بالأرض.

قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]،

في هذا الحكم الصادرعليهما وعلى ذرِّيَّتهما الذين سيتناسلون منهما نقل لرِحلة الابتلاء من الجنَّة التي أعدها الله من بداية خلق الدنيا؛ لتكون دار الفوز وأراد الله تعالى أن يذيق ادم فيها حلاوة النعيم، ولكن جبلة الطبيعة التي خلق منها غلبته ليخسر النعم، ويذهب للشقاء باذلا كل الجهد ليعود مرة أخرى للنعيم ،وها هي الأرض التي نحن فيها، والتي جعلها الله سبيل الخلود السَّعيد، ولن يكون ذلك إلا بالعمَل الإرادي الذي يتحقَّق به رضوان الله ربِّ الأكوان، والمهيمن على كلِّ شيء فيها بعلمه وحِكمتِه وقدرته، والمجري إحداثها بقضائه وقدَره وخلقه.

والأمر بالهبوط موجَّه لآدم وزوجه عليهما السلام و إبليس عليه لعنة الله ليوم الدين.

وبدأ آدم وحواء رحلة الشقاء بالأرض بعدما كانا يسكنان الجنة، و ينالا منها كل النعيم بلا جهد، ولا شقاء كانت الجنة تحت قدميهما بكل ألوان النعم، ولكن دائما النفس البشرية تقول: هل من مزيد؟ فاتبعا إغواء الشيطان بملك لا يبلى. ولما كانت الأرض هي موعد ادم لإثبات حقيقة توبته تحمل فيها كل ألوان الشقاء بعد النعيم، وعلم الله ادم في الأرض كيف يحيا

بالبحث عن معطيات البقاء. وهيأ له كل سبل البحث والعون ليبدأ بيديه توفير مقومات بقاءه هو وحواء بالأرض. كان إبليس دائما يسخر منه كلما مر عليه وهو يشقى ليطهر نفسه من المعصية ويبذل قصارى جهده ؛ للفوز برضا ربه مرة أخرى؛ حيث جعل الله الآخرة؛ موعد الصادقين في وعودهم مع الله، لم يسمح أدم لإبليس أن ينال منه مرة أخرى وتمسك بالصبر على الشقاء، و انخرط في مهمته.. ألا وهى تعمير الأرض. واجتهد أدم في تعليم أبنائه كيف يكون منهاج الحياة، وحكمة وجود الإنسان فيها وعلمهم أنها دار زوال والبقاء بعد البعث لمن فاز بالاختبار؛ ليسكن الجنان. فهي جائزة الله لعباده الصالحين، ولكن يا ترى هل يأس إبليس من آدم؟ أم كان عنده سبل أخرى، لم ييأس إبليس وتحول هدفه لذرية أدم فهل نجح إبليس مع ذرية ادم كما فعل من قبل مع أبيهم ؟..............